﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: 1 - 2]

❁ مُناسَبَةُ مَطْلَعِ السّورةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من وعدِ المؤمنين بالفلاح إلى تعليل ذلك ببيان الصِّفات الحسنى

لمّا خُتِمت سورةُ المجادلة بأنَّ الله معزٌّ أهلَ طاعته، ومذلٌّ أهلَ معصيته ومحادّته؛ ناسب أن يبدأ هذه السّورة بتنزيهه ﷻ عن النّقائص؛ تأييدًا للوعد بنصرهم[1]، فإنَّ الله ناصرُ المؤمنين بإيمانهم وعملهم لدينه، كما أنَّه لمّا ذكر حالَ المنافقين واليهود وتولّي بعضِهم بعضًا؛ ذَكَر بعده ما حلَّ باليهود من غضب الله تعالى عليهم وإجلائه لهم، وإمكان رسوله ﷺ ممن حادَّ الله ورسوله، ورام الغدر بالرَّسول ﷺ، وأظهر العداوة بحلفهم مع قريش[2]، ذلك أنَّه لمّا قال في خاتمة المجادلة: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: 21]؛ ناسب أن يبيّن ذلك، ويؤكِّده في مطلع الحشر، فقال تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخۡرَجَ﴾: (خرج) يدلُّ على النَّفاذِ عَنِ الشَّيْءِ، يقال: خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا: برز من مقرِّه أو حاله، سواء أكان مقرُّه دارًا، أم بلدًا،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 403.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 137.
(3) مجمع البحوث الإسلامية، التّفسير الوسيط: 10/ 1346.

أم ثوبًا، وسواء أكان حاله حالة في نفسه، أم في أسبابه الخارجة، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 21]، والإخراجُ: أكثر ما يقال في الأعيان، نحو: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المؤمنون: 35][1].

2) ﴿ٱلْحَشْرِ﴾: (حشر) معناه: الجَمْعُ مَعَ السَّوْقِ، وهو: إخراجُ الجماعةِ عن مقرِّهم وإزعاجُهم عنه إلى الحرب ونحوها، ويقال في الإنسان وغيره، ومنه: حَشَرَتِ السنة مالَ بني فلان، أي: أزالته عنهم، ولا يُقال الحشر إلّا في الجماعة، قال الله تعالى: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشعراء: 36]، وقال: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص: 19]، وقال: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾[2].

3) ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾: (منع) أَصْلٌ واحِدٌ هوَ خِلافُ الإعْطاءِ، يقال: مَنَعْتُهُ الشَّيْءَ مَنْعًا، والمَنْعُ: أن تَحولَ بَيْنَ الرَّجُلِ وبَيْنَ الشَّيْءِ الَّذي يُريدُهُ، وهوَ خلافُ الإعْطاءِ، ويُقالُ: هوَ: تحجيرُ الشَّيْءِ، ويقال في الحماية، ومنه: فلان ذو مَنَعَة، أي: عزيز ممتنع على مَنْ يرومُه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 141][3].

4) ﴿حُصُونُهُم﴾: (حصن) أَصْلٌ واحِدٌ هوَ: الحِفْظُ والحياطَةُ والحِرْزُ، فالحِصْنُ مَعْروفٌ، والجَمْعُ حُصونٌ، قال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ [الحشر: 14]، أي: مجعولة بالإحكام كالحصون، وقال: ﴿مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾[4]، وهي الأبنية الَّتي يتَّخذها النّاس؛ لمنع العدوانِ من الخارج بالجدُر العالية، والبناء الشَّديد المتماسك.

5) ﴿وَقَذَفَ﴾: (قذف) يَدُلُّ على الرَّمْيِ والطَّرْحِ، يُقالُ: قَذَفَ الشَّيْءَ يَقْذِفُهُ قَذْفًا؛ إذا رَمَى بِهِ بعيدًا، ولاعتبار البُعد فيه قيل: منزل قَذَفٌ وقَذيفٌ، وبلدة قَذوفٌ: بعيدة، قال تعالى: ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [طه: 39]، أي: اطرحيه فيه، وقال: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: 26][5]، أي: ألقى.

6) ﴿ٱلرُّعْبَ﴾: (رعب) يدلُّ على امتلاءٍ وخَوْفٍ وانقِطاعٍ، يقال: رَعَبْتُهُ رَعْبًا، والاسْمُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن: (خرج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (حشر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (منع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن: (حصن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن: (قذف).

الرُّعْبُ، وفاعِلُهُ راعِبٌ ورَعّابٌ، ورَعَبَ الحَوْضَ يَرْعَبُه رَعْباً: مَلأَه. ورَعَبَ السَّيْلُ الوادِيَ يَرْعَبُه: مَلأَه، وهُو مِنْهُ. وسَيْلٌ راعِبٌ: يَمْلأُ الوادِيَ؛ وسَنامٌ رَعِيبٌ أَي مُمْتَلِئٌ سَمِينٌ[1]، ويُقال للشّيء المُقَطَّع: مُرَعَّبٌ. ويُقال للقِطعَةِ من السَّنَام: رُعْبُوبَةٌ[2]، ومعناه في الآية: الانقطاع من امتلاء الخوف[3].

7) ﴿يُخْرِبُونَ﴾: (خرب) يَدُلُّ على التَّثَلُّم والتَّثَقُّب، فالخُرْبَةُ: الثُّقْبَةُ، ومنه يُؤخذ معنى الخَراب، يقال: خَرِبَ المكانُ خَرابًا فهُو خَرِبٌ، وهو ضدُّ العمارة، والتخريب: نقضُ البناء وهَدْمُه[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من مظاهر عِزَّة الله للمؤمنين وحكمته في معاملة أعدائهم قلعهم من الأرض الطّاهرة

افتُتِحت سورةُ الحشر بالثَّناء على الله تعالى وتنزيهِهِ عن كلِّ ما لا يليق بذاته الجليلة، فأخبرت الآيةُ الأولى أنَّ جميع ما في السَّماوات وجميع ما في الأرض من كائنات ومخلوقات قد سبَّح الله تعالى ونزَّهه عن كل ما لا يليق به، وكيف لا يكون ذلك وهو العزيزُ الجناب الحكيمُ الفعّال؟ وبيَّنت الآيةُ الثّانيةُ أنَّ من مظاهر قدرته وحكمته إجلاءه الّذين كفروا من أهل الكتاب - وهم يهود بني النّضير - عن المدينة؛ لأنَّهم عادوا الرَّسول والمؤمنين، ونقضوا العهود الَّتي أبرموها معهم؛ أخرجهم الله تعالى منها على الرَّغم من كثرة عَددهم، ووفرة عددهم، وقُرب بني قريظة وأهل خيبر منهم، وعَرْضِ المنافقين مساعدتَهم، وهو ما جعل المسلمين يظنّون أنَّهم لن يخرجوا، في الوقت الَّذي اعتقد اليهودُ أنَّ حصونهم ستمنعهم من بأس الله؛ إذا جاءهم، فما أغنى عنهم شيء من ذلك، وجاءهم من الله تعالى ما لم يكن ببالهم؛ إذ قذف في قلوبهم الرُّعب، فطلبوا

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (رعب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رعب).
(3) الراغب، المفردات: (رعب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (خرب).

التَّصالح مع المسلمين على أن يخرجوا من ديارهم، ويأخذوا معهم ما خفَّ حِمْلُه، وغلا ثمنُه، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وهو ما يدعو أولي الأبصار إلى التفكُّر والاعتبار[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعة الاستفتاح بالتَّسبيح:

تسبيح الكون يؤذن بتذكير المؤمنين

افتتاح السّورة بالإخبار عن تسبيح ما في السَّماوات والأرض لله تعالى فيه تذكيرٌ للمؤمنين بتسبيحهم لله تسبيحَ شكرٍ على ما أنالهم من فتح بلاد بني النَّضير، فكأنَّه قال: سبِّحوا لله، كما سبَّح له ما في السّماوات والأرض، وفيه تعريضٌ بأولئك الّذين نزلت السّورةُ فيهم، وتلميحٌ إلى أنّهم ما أصيبوا بما أصابهم إلا لتكبُّرهم عن تسبيح الله حقَّ تسبيحه، بتصديق رسوله ﷺ؛ إذ أعرضوا عن النَّظر في دلائل رسالتِه، وكابَروا في معرفتِها[2].

نكتةُ التَّعبير بالماضي: ﴿سَبَّحَ﴾:

الكون سبَّح لله شكرًا على نصر المؤمنين

أوثر التَّعبير بفعل التَّسبيح ماضيًا، فقيل: ﴿سَبَّحَ﴾؛ لأنَّ المُخبَر عنه تسبيحُ شكرٍ عن نعمة مضت قبل نزول السّورة، وهي: نعمة إخراج بني النّضير من ديارهم[3]، فهو إيماءٌ إلى حدثٍ واقع، لا عن أمر سيَقَعُ، فالتَّعبير بصيغة الماضي يتَّسق مع موضوع السّورة، ويدلُّ التَّسبيح على انسجام الكونِ مع الأحداث الَّتي لها علاقةٌ بنصر المؤمنين، والخلاص من الكافرين.

لطيفة تنوُّع صيغ التَّسبيح في القرآن الكريم:

صيغ التَّسبيح متَّسقةٌ مع السّياق الواردة فيه

ورد التَّسبيحُ لله في القرآن الكريم بالصّيغ الثّلاث الدّالّة على أزمنة الحدث، فجاء بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 283، وحجازيّ، التّفسير الواضح: 3/ 643، 644.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 64.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 64.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وجاء بصيغة المضارع في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [الجمعة: 1]، وجاء بصيغة الأمر في قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [الأعلى: 1]، وورد بصيغة المصدر في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الروم: 17]، وفي هذا التَّنوُّع نلحظ أنَّ الفعل مرتبط بزمن وبفاعل حتى يكون فعلًا، والمصدر هو الحدث المجرَّد الّذي ليس له زمن ولا فاعل، ما يعني: أنَّ التَّنزيه استغرق الزّمن الماضي (سَبَّحَ)، والحال والمستقبل (يُسَبِّحُ)، والأمر بالتَّسبيح ومداومته (سَبِّحْ) و(سُبْحانَ)، وفي ذلك إيذان بتحقُّقه في جميع الأوقات، وتنبيه على أنَّ حقَّ مَن شأنُه التَّسبيحُ الاختياريُّ أنْ يسبِّح الله تعالى في جميع أوقاته، كما عليه الملأ الأعلى؛ إذ يسبِّحون اللَّيل والنّهار لا يفترون[1]، وثمّ دلالة أخرى على أنَّ تنزيه الله تعالى وتسبيحه استغرق جميع الأزمنة، وقبل الأزمنة وبعد الأزمنة، واستغرق الخلق وما قبل الخلق وما بعد الخلق[2]، وهذا على مستوى القرآن، أمّا على مستوى سياق السّورة، وسياق الآية؛ فإنَّ الصّيغة ملتئمةٌ مع السّياق الواردة فيه.

نوع اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾:

التَّسبيح الحقُّ لا يكون إلّا للإله الحقّ

اللّام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للتّبيين، وفائدتُها: زيادة بيان ارتباط المعمول بعامله؛ لأنَّ فعل التَّسبيح مُتَعَدٍّ بنفسه لا يحتاج إلى التَّعدية بحرف[3]، وفيها معنى: اختصاص الله بالتَّسبيح والتَّعظيم من كلّ الكائنات الموجودة في السَّماء والأرض اعترافًا بربوبيّته، وإقرارًا بنعمه وعطاياه الّتي لا تُحصى، ولا تُعَدُّ، ويمكن أن تكون اللّامُ للتَّعليل الدالِّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 203.
(2) السّامرائي، لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل، ص: 116.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 357.

على ضرورة قرن التَّسبيح بالإخلاص، والمعنى: سَبَّحَ لله مخلِصًا في تسبيحه، وهذا هو الفرق بين (سَبَّحَ اللهَ) الدّال على حصول التَّسبيح فقط، وبين ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ الدّال على حصوله مقرونًا بالإخلاص[1].

غرض تقديم ﴿لِلَّهِ﴾ على المسند إليه:

الأفعالُ منوطةٌ بمقاصدِها محفوفةٌ بغاياتها

جيء باسم الجلالةِ المسبوق باللّام مُقَدَّمًا على المسند إليه في جملة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لإفادة قصر ما في السّماوات وما في الأرض تسبيحَهم وعبادتَهم على الله تعالى، لا يتجاوزه ذلك إلى أحد آخر، قصرَ صفة على موصوف قصرًا حقيقيًّا، يُذكِّر المُتَلَقّي بألّا يشذَّ عن كونِ اللهِ الفسيحِ، وألّا يختلفَ كلامُه عن كلام كلِّ المخلوقات الّتي لا تتوقَّف عن تنزيهِ الله تعالى وتعظيمِه، فوقع ﴿لِلَّهِ﴾ ما بين الفعل والفاعل؛ للتَّنبيه على أنَّ الأفعال منوطةٌ بمقاصدها، ومحفوفةٌ بغاياتها.

فائدةُ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾ مسندًا إليه:

عمومُ التَّسبيح وشمولُ الخضوع لله في الكون كلِّه

عبَّر البيانُ عمّا أُسنِد إليه فعلُ التّسبيح باسم الموصول العامّ، فقال: ﴿مَا﴾؛ ليشمل المعنى جميعَ ما في السّماوات من الكواكب والنُّجوم، الّتي عبدها الكفّارُ من بني آدم كالشّمس والقمر وغيرهما من الكواكب المبثوثة في السّماوات كلِّها، وكذا الملائكة الّتي لا يقتصر وجودُها على سماءٍ بعينها؛ ليعلم المخاطَبون أنَّ كلَّ ما في السَّماوات من كائناتٍ ومخلوقاتٍ - أيًّا كانت ومهما كانت - عبيدٌ لله ﷻ[2].

فائدةُ التَّعبير بحرف الظرفيَّة:

استغراقُ جميعِ المخلوقات الظّاهرة والخفيّة في عبادةِ التّسبيح

كما عبّر البيانُ في قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بحرف الجرِّ المفيد؛ للظرفيَّة للدَّلالة على أنَّ كلّ الكائنات والمخلوقات الّتي تقع داخل أقطار السّماوات، وتحيط بها إحاطة الظّرف بالمظروف سبحت لله،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 203، والسّامرائيّ، لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل، ص: 118.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 403، 404.

وتسبِّح له بلا فتور ولا انقطاع، سواءٌ عَلِمَها النّاس، أو لم يعلموها، وسواء أكان تسبيحُها اختيارًا أم اضطرارًا، فالمقصودُ بالظَّرفيَّة هو الشمولُ والاستيعاب، ولمّا كان الغائب الّذي يجهله الإنسان أكثر من المشاهد الّذي يعلمه؛ عبَّر بحرف الظّرفيَّة؛ ليدخل جميعُ المخلوقات.

نكتة جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفراد ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

السّماوات دليلُ العظمةِ والأرض الشّاهد الدّال على الغائب

درج البيانُ في مقام تنزيه الله تعالى، وفي كثير من المواضع على جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّ الجمعَ يتناسب مع التَّنزيه والتَّمجيد، لما يدلُّ عليه من سعة الكون المُسَبِّح وعظمته، ولأسرار أخرى منها: أنَّ السّماوات أشرف من الأرض، والجمع أبلغ في التَّفخيم من الواحد، ومنها: أنّ أوامرَ الله تعالى إلى الأرض تخترق جميعَ السّماوات السّبع، وهو ما يزيد شرفها وأفضليّتها، ومنها أنّ السّماواتِ طباقٌ، بعضُها فوق بعض[1]، وفي كل طبقة منها ملائكة ومخلوقات وكواكب تسبِّح الله تعالى، وتمجِّده، والملحوظ بصفة عامّة أنّ البيان الكريم يجمع السّماوات في كلّ مقام يُراد فيه إبراز جلال الله، وعظمة قدرته، وسعة ملكه؛ ليكون في ذلك الإبراز ما يدعو إلى التأمُّل وتوجيه البصائر والأبصار إلى ما وراء هذا الأفق المحدود الّذي يعيش فيه مَن لا يمدون أبصارهم إلى أكثر من مواقع أقدامهم[2]، ولمّا كانت السّماوات كثيرةً، ومعظمها مجهولٌ للإنسان على التَّحقيق؛ عبَّر عنها بالجمع؛ لتكون شاهدًا على العظمة، ولمّا كانت الأرض مشاهدةً؛ أفردها، وجعلها شاهدًا على الغائب في العظمة والمكنة والاقتدار.

لطيفة تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

أهل السّماء أسبق وجودًا وأعرق تسبيحًا من أهل الأرض

قَدَّمت الآيةُ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (ما في الأرض)؛ لأنَّ أهل السّماوات أسبقُ وجودًا من أهل الأرض، كما أنَّهم أسبقُ تسبيحًا

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/ 92، والنّسفي، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 1/ 489، والخفاجيّ، حاشية الشّهاب على تفسير البيضاوي: 4/ 3.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 4/ 119.

قبل خلق آدم ﷺ، ولأنَّهم كذلك أكثرُ تسبيحًا، وأكثرُ مداومةً على التَّنزيه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: 19 - 20][1]، كما أنَّ السَّماوات - وهي سقف الأرض - لها حقُّ التَّقديم لمكانتِها في الخلق، ولمّا كانت طباقًا مجموعًا؛ ناسب كذلك تقديمها، ولذلك كلّه فإنَّ السّماوات أشرفُ بهذه الاعتبارات.

بلاغة العطف بالواو:

تسبيح ما في الأرض فرعٌ تابعٌ لتسبيح ما في السّماء

جاء قولُه: ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معطوفًا على ما قبله بالواو الّتي تفيد المشاركة؛ للدَّلالة على أنَّ الكون كله بسمائه وأرضه، بما فيه ومَنْ فيه يسبِّح لله تعالى، وينزِّهه، ويعترف بفضله وألوهيّته، ولو اقتصر البيان على (ما في السّماوات)؛ لسبق إلى الوهم أنَّ التَّسبيح والتَّنزيه لم يصدر من الأرض وما فيها، وأنّه مقصور على السّماء وما بها، وهو ما يخالف الحقيقة والواقع، ويمنح الجاحدين العذر لكفرهم وجحودهم.

توجيه المتشابه اللّفظي بين مطلعي سورة الحشر وسورة الحديد:

مقامُ العمومِ يقتضي الإجمال ومقام الخصوص يقتضي التَّفصيل

في مطلع سورة الحديد قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: 1]، وقال هنا: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بتكرار (ما في)؛ وذلك لأنَّ فاتحة الحديد تضمَّنت الاستدلال على عظمة الله وصفاته وانفراده بخلق السّماوات والأرض، فكان دليلُه مجموعَ ما احتوت عليه السّماوات والأرض من أصناف الموجودات، فجمع ذلك كله في اسم واحد هو ﴿مَا﴾ [الحديد: 1] الموصولة الّتي صلتها قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: 1]، أمّا فاتحة الحشر؛ فقد سيقت للتَّذكير بمنَّة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضيَّة، هي خذلان بني النّضير، فناسب فيها أن يَخُصَّ

(1) السّامرائي، لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل، ص: 123.

أهلَ الأرض باسم موصول خاص بهم، وهي (ما) الموصولة الثّانية، الّتي صلتها: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾[1].

بلاغة الطّباق الخفيّ:

التّسبيح دَيْدَن السّماوات والأرض الجامع لما بينهما

في الآية الكريمة نوعٌ من الطّباق يُسمّى الطّباق الخفيّ، لأنَّ التَّضاد فيه ليس بين اللّفظين مباشرةً، لكنّه حاصلٌ بين لازم كل طرف منهما، فالسّماوات تطابق الأرض باعتبار أنّ الأولى تدلُّ على جهة الأعلى والثّانية على جهة الأسفل، وأيًّا كان نوع الطّباق فالجمع بين: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، في قرن واحد يدلُّ على أنّ الكون كلّه لا يفتر عن تسبيح اللّه وعبادته وتمجيده، ما يعني: أنّ التّسبيح هو ديدن السّماوات والأرض الّذي لا يتوقّف، ولا ينقطع، وأنَّ الّذي لا يسبح شاذٌّ عن الكون وما فيه.

نكتة إفراد ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

إفراد الأرض في البيان القرآنيّ لبيان وحدة الخلق والمقام

درج البيانُ القرآني على جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في كثير من المواضع، درج أيضًا على إفراد ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ وذلك لأنَّ الأرض وإن كانت سبعًا؛ فليس بعضها فوق بعض، بل بعضُها موالٍ لبعض[2]، وقيل: إنَّ الأرض طبقاتٌ، بين كل منها والأخرى مسافةٌ عظيمةٌ، والنُّكتةُ في إفراد القرآن لها: أنَّ جمعها ثقيل، وهو مخالف للقياس كأرضون، ولذا لما أراد اللّه تعالى ذلك قال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطّلاق: 12]، ولم يجمعها، وربَّ مفردٍ لم يقع في القرآن جمعُه لثقله وخفة المفرد، وجمعٍ لم يقعْ في الذِّكْر مفردُه كالألباب[3]، وفي إفراد الأرض إيماءٌ إلى أنَّ على النّاس أن يعلموا أنَّهم جميعًا أبناء أرض واحدة، لا اختلاف بينهم ولا تمايز إلّا بالأعمال.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 65.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 1/ 489.
(3) الخفاجيّ، حاشية الشّهاب على تفسير البيضاوي: 2/ 261.

نوع الواو ودلالتها:

الاحـتراس عن أوهـام الأفـهام بترسيخ صفات الملك العلّام

الواو في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ هي واو الحال، والجملة بعدها حاليَّة تدلُّ على أنّ العزّة والحكمة هي حال لله تعالى لا تتبدّل، ولا تتغيَّر، وأنَّ تسبيح الكون بما فيه ومن فيه وتنزيهه له ما حصل إلّا لكونه عزيزًا، لا يُغلب، حكيمًا لا يَزِلُّ، كما أنَّ تسبيحَ الكون أو عدم تسبيحه، أو امتناع أحدٍ فيه عن التَّسبيح لن يُنقِص من عزَّته، ولن يُؤَثِّر في حكمتِه أو ربوبيتِه، فدلَّت جملةُ الحالِ على أنَّ الله عزيزٌ عن الاحتياج لتسبيح أحدٍ، حكيم في رعاية المخلوقات، فليس بحاجةٍ لتسبيحهم، ولم يمنحهم الرِّعاية والعناية؛ ليُسبِّحوه، بل ذلك بمقتضى ربوبيّته؛ فدلَّت الجملة على الاحتراس عن توهُّمِ أنَّ الله تعالى بحاجةٍ إلى تسبيح خلقه، بل هو العزيز الحكيم.

نكتة التّعبير بالضّمير:

الـجَـزي على الـظّـاهـر هو الأصـلُ في نظم الكلام

عبَّرت الجملة الحاليّة عن المسند إليه بالضّمير العائد إلى اسم الجلالة (هوَ)؛ جريًا على الأصل في التَّعبير عن الاسم الظّاهر الّذي سبق ذكره قريبًا بالضّمير؛ لِما يفيده من تعيين المتحدَّث عنه تعيينًا يحول دون صرف الكلام عنه إلى أحد غيره، والمعنى: إن الله الّذي يسبّح له ما في السّماوات وما في الأرض هو العزيز الحكيم.

بلاغة القصر في الجملة الحاليّة:

لا ينتفعُ الله تعالى بتسبيح مسبِّح، ولا يضرُّه جحود جاحد

في جملة: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ قَصَر النّظمُ صفتي العزّة والحكمة على كونهما ثابتتين لله تعالى، بعد نفيهما عن أيِّ أحدٍ آخر، قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًّا، بطريق تعريف الطَّرفين، بقصد التَّأكيد على كونه تعالى مستحقًّا للتَّسبيح وفي الوقت نفسه مستغنيًا عنه، لا يضيره تفريطُ أحد فيه أو جحودُ أحد له؛ لأنَّ الخلق هم المحتاجون إليه، وليس العكس.

سرُّ الفصل:

تنوُّعُ عللِ فصلِ الـجـمـلِ عـن الجملِ راجعٌ إلى تـفـسير المعـاني وتوجيه المقاصد

جاءت جملة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لكمال الاتصال، الّذي تنزل فيه الجملة المفصولة ممّا قبلها منزلة التّابع من المتبوع؛ إذ من الجائز أن تكون مبيِّنةً لجملة: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ هذا التَّسخير العظيم والإخراج العجيب من آثار عزَّة الله تعالى وحكمته، ويمكن أن تكون مفصولة لشبه كمال الاتِّصال، الَّذي تُجيب فيه الجملة الثّانية عن سؤال تثيره الآية السّابقة في أذهان المتلقّين حول علَّة تذكير المؤمنين بالتّسبيح، وسبب التَّعريض بالغافلين عنه، فتجيب عن ذلك الآية التّالية، وتُفصَل عن السّابقة عليها، كما يُفصَل الجواب عن السُّؤال، ويمكن أن تكون الآيةُ مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا لقصد إجراء هذا التَّمجيد على اسم الجلالة لما يتضمَّنه من باهر تقديره، ولِما يؤذن به ذلك من التَّعريض بوجوب شكره على ذلك الإخراج العجيب.

وعلى كل الوجوه فهو تذكيرٌ بنعمة الله على المسلمين، وإيماءٌ إلى أن يشكروا الله على ذلك، وتمهيدٌ للمقصود من السّورة، وهو قسمة أموال بني النَّضير[1].

بلاغةُ تكرار ذكر ضمير الفصْل:

تأكيد ما في إبعاد بـنـي الـنَّـضـير عـن المدينـة من حكمةٍ باهرةٍ

أعاد البيانُ ذكر الضّمير العائد إلى اسم الجلالة العَلَم، في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فلم يقل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ليكون الاسم الموصول وصفًا، وذلك لتأكيد استحقاقه تعالى التّسبيح والتّمجيد على عظيم نِعَمِه بصفة عامّة، ونعمة إخراج اليهود بصفة خاصّة، ولتأكيد اتِّصافه بالعزَّة والحكمة، بناء على كمال ظهور اتِّصافه بهما، مع مساعدة تامَّة من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 65.

المقام، كأنّه قيل: ذلك المنعوت بالعزّة والحكمة هو الّذي أخرج، ففيه إشعار بأنَّ في الإخراج حكمةً باهرةً[1].

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

جاء التَّعبير بالاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لتفخيم شأن المسند إليه – ضمير الفصل – وتعظيم أمره، وليتوصَّل بجملة الصِّلة إلى برهان كونه عزيزًا حكيمًا مستحِقًّا للتَّسبيح والشُّكر والتَّمجيد.

نكتةُ تعريف ركني جملة ﴿هُوَ ٱلَّذِينَ﴾:

إخراجُ يهود بني النَّضير فعلُ الله وحدَه وعمل المؤمنين أخذٌ بالسّنن

تعريف ركني جملة: ﴿هُوَ ٱلَّذِينَ﴾ بالضّمير والاسم الموصول يفيد قصرَ صفة إخراج الّذين كفروا من ديارهم على الله تعالى، قصرًا ادعائيًّا لعدم الاعتداد بسعي المؤمنين في ذلك الإخراج ومعالجتهم بعض أسبابه، كتخريب ديار بني النّضير وغيره، ما يعني أنّ "السّبب الحقيقيّ في إخراجهم من ديارهم، هو ما قذفه اللّهُ في قلوبهم من الرّعب، أما محاصرة المؤمنين لهم؛ فهي أسباب فرعيّة، قد تؤدّي إلى إخراجهم، وقد لا تؤدّي، وفيه أيضًا إشعار بأنَّ كلَّ شيء إنّما هو بقضاء الله وقدره"[2]، كما أنَّ القصرَ يُعطي تشريعًا في إخراج اليهود من جزيرة العرب، فالّذي أخرجهم الله تعالى وحده، فعلًا وإرادةً، وإرادته ﷻ نافذةٌ، فليس لأحدٍ أن ينازع الله في إرادته، أو أن يعترض على أمرِه سبحانه، وهو قصرٌ يستدعي مزيدًا من شكر الله والثّناء عليه، ويدعو لالتزام أمره في قسمة غنائم هذه المعركة، الّتي تَوَلَّى سبحانه فيها إخراجَ اليهود بنفسه من غير حرب ولا قتال.

وجه التَّعبير بفعل الإخراج ماضيًا مسندًا إلى الضّمير:

إخراج بني النّضير قاعٌ للجذورِ وتطهيرٌ من الوجود

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الإخراج، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِينَ أَخۡرَجَ﴾ دون (أجْلَى) أو (أذْهَبَ)، ونحو ذلك مما يفيد هذا المعنى،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 225.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 283، 284.

لما يدلُّ عليه الإخراج - بمعناه وجرسه - من صعوبة الحدث وشدَّته، وأنّه ما كان ليحدث؛ لولا حكمة اللّه تعالى وقدرته، الّتي تمثّلت في أن أتاهم من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرّعب، تلك الصعوبة لا يصوّرها فعل آخر غير ﴿أَخۡرَجَ﴾، وجيء به ماضيًا مسندًا إلى ضمير اسم الجلالة العَلَم؛ للإشارة إلى عظمة الإخراج، وأنّه كان على وجهٍ بالغ في القهر والإذلال[1]، ومقتضى مفردة الإخراج الإيماء إلى خلع جذورِ اليهود من جزيرة العرب، فالإخراج يدلُّ على إخراج شيءٍ من باطن، فإخراج بني النّضير كان بعد تمكّنهم، ومدِّ جذورِهم، وهذا لا يكون إلّا بإرادة اللّه تعالى، وهو ما يُقَوّي القصرَ المُعَبَّر به في أول الآية.

نكتةُ التّعبير عن المفعول بالاسم الموصول:

الإيماء إلى علل الأفعال وأنَّ الكفرَ هو الباعث على الغدر والخيانة

التَّعبير عن مفعول الإخراج بالاسم الموصول بالفعل الماضي في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، دون (اليهود) تشنيع بفعلهم، وتقبيح لصنيعهم، وتسجيل لاتِّصافهم بهذا الوصف الذَّميم؛ للإيماء إلى أن تغلغل الكفر في نفوسهم هو الباعث الرَّئيس على خيانتهم وغدرهم، وعدم التزامهم بالعهود الّتي قطعوها مع المسلمين على أنفسهم، فهو تعليل لأفعالهم الشّنيعة، ولبيان سبب الإخراج.

نوع ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها:

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بيانيَّة بأنَّ الكفّار الّذين أخرجهم اللّه تعالى من أهل الكتاب، فالمعنى محصور في اليهود، وليس مُحْتَمِلًا لغيرهم[2].

فائدة إيثار التّعبير بتركيب ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير بتركيب ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لزيادة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 406.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 67.

تقبيح صنيع اليهود وتوبيخهم، وتأكيد استحقاقهم الإخراج من مدينة رسول الله؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّ المأمول فيهم أن يعملوا بالكتاب الّذي أنزل إليهم، ويلتزموا بتعاليمه الّتي دعتهم إلى الإيمان برسول الله ومؤازرته ونصرته، لكن الحاصل أنَّهم خالفوا كتابهم، واتَّبعوا أهواءهم، ونطقت أفعالهم ببالغ حقدهم، ما ترتّب عليه إخراجُهم، "فوصفهم بالكفر، وبأنَّهم من أهل الكتاب لبيان أنّهم جمعوا بين رذيلتين: رذيلة الكفر بالحقِّ، ورذيلة عدم العمل بكتابهم الّذي أمَر باتّباع الرّسول ﷺ الّذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التَّوراة والإنجيل، والّذي يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر"[1]. ولو قيل: (هو الّذي أخرج الّذين كفروا من ديارهم)؛ لانصرف الذّهن إلى كفّار مكّة وأمثالهم في المدينة، ولو قيل: (هو الّذي أخرج أهل الكتاب من ديارهم)؛ لما فُهم أنّهم كفروا بما أُنزل إليهم، وخالفوا كتابهم، واتّبعوا أهواءهم، وأنَّ إخراجَهم كان بلا سبب واضح، وهو ما يخالف الحقيقة والواقع، وينافي العزّة والحكمة الّتي وصَفَ بهما ربُّنا نفسَه في مطلع السّورة.

عـقـوبـةُ أهـل الـكـتـاب وتوبيخهم ليس كعقوبةِ الجهلة مـن الـوثـنـيّـين عند الاستواء في العدوان

معنى التَّركيب الإضافيّ ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

عبَّر البيان عن اليهود بلفظ ﴿أَهۡلِ﴾ الموضوع للأقارب الأدْنَيْن من جهة النَّسب ومن جهة الاختصاص[2]، مع إضافته إلى ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المراد به التّوراة الَّتي أنزلها اللّهُ تعالى لهم على نبيِّهم موسى عليه السلام، لا باعتبار استحقاقهم أن يكونوا أهلَ كتابٍ، فليست الإضافة بمعنى لام الاختصاص، وإنَّما هو من باب التّركيب الإضافيّ الّذي أصبح عَلَمًا شائعًا، فتُنوسي المعنى التَّركيبيُّ، وأخذ المعنى العَلَميّ المقتضي للتّعريف والبيان، فإذا أُطلِقَ أهل الكتاب؛ فهم المرادون.

مـصـطـلـح (أهـل الكتاب) جـرى مـجـرى الأعـلام للتَّمييز والتَّعريف

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 284.

(2) الرّاغب، مفردات اللّغة: (آل)، والعسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 281.

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتها:

النَّزع من الدّيارِ نزعٌ للرّوحِ وموتٌ للبدنِ

قولُه تعالى: ﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ جار ومجرور متعلِّق بفعل الإخراج، و﴿مِن﴾ فيه ابتدائيَّة[1]، وهي تؤكِّد شدَّة الإخراج على أنفسهم وصعوبته على قلوبهم؛ لأنَّ حبَّ الدّيار وارتباطَهم بها جعل الإخراج منها كأنَّه نوعٌ من الانتزاع، "فلمّا كان الوطنُ عديلَ الرّوح؛ لأنَّه للبدن كالبدن للرّوح، كان الخروجُ منه في غاية العسر، دلَّ على مزيد قهرهم به بأن قال: ﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾"[2]، وهو ما يتَّسق مع مفردةِ الإخراجِ السّابق بيان نُكتتِها، فلا مرجع لهم من حيث أخرجهم اللّه تعالى.

بلاغة التَّعبير بـ ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ مضافًا إلى الضَّمير:

الدّيارُ هي مكانُ الاستقرارِ والعَوْدِ مهما طال الغيابُ

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾؛ وذلك لإبرازِ شدَّة حبِّهم لها، وبيان مدى تعلُّقِهم بها، فهو المكان الَّذي يعودون إليه مهما طال الغياب، ويرجعون إليه مهما تباعد بهم اللفُّ والدَّوْرُ[3]، بخلاف (البيوت) الدّال على مكان المبيت والمأوى[4]، وهو ما يمكن تحقُّقه في أيِّ مكان، وجيء به مضافًا إلى ضمير ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لتقوية الارتباط بينهم وبين الدّور الّتي قاموا ببنائها وإنشائها، وللدَّلالة على أنَّ هذا شعورُ جميعِ مَن أُخرِجوا بلا استثناء.

بلاغة التَّعبيرِ بالجمع ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾:

الدّيار تشمل الممتلكات العامَّة والخاصّة والدّور تقتصر على البيوت

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بصيغة ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ دون (دورهم)؛ وذلك لتفجيع الأمرِ، وتهويل المصاب، فإنَّ الدّور تختصُّ بالدّار الّتي هو موضع الإقامة الخاصَّة بكلِّ فردٍ وعائلة، أمّا الدّيار؛ فتشمل الأحياء والدّورَ والعرصات والشّوارع والطرق الموصلة وكلّ ما يتعلق بالممتلكات العامة لقبيلة أو تجمع سكّاني، فلمّا ذكر الدّيار؛ أراد

(1) الحلبيّ، الدرّ المصون: 10/ 277.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 406.
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (دار).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (بيت).

المتلكات العامة الّتي يشترك فيها الجميع، والدّور الخاصّة، وهذا أشدُّ في تصويرِ آلامهم، وتقريع آمالهم.

نوع اللّام ودلالتها:

اللّام في قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ هي لامُ التَّوقيت الّتي تدخل على أوّل الزّمان المجعول ظرفًا للعمل، كما في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر: 24]، وهي بمعنى (عند)، والمعنى: أخرجهم عند مبدأ الحشر المقدَّر لهم، وهذا إيماء إلى أنَّ اللّه تعالى قدَّر أن يخرجوا من جميع ديارهم في بلاد العرب[1].

الإيماءُ إلى إخراج بني النَّضير جميعهم عند أوّل الحشر

وجه التّعبير بقوله: (أوّلِ):

جاء ذكر (أوّلِ)؛ للإيماءِ إلى أنَّ هذه أول مرَّة يُحشَر فيها أهلُ الكتاب؛ ليُخرجوا من جزيرة العرب، فلم يصبهم هذا الذلُّ قبل ذلك؛ إذ كانوا أهل منعةٍ وعزٍّ، وفيه أيضًا إيذانٌ بأنَّ حشرَهم سيتعاقب حتّى يكملَ إخراجُ جميع اليهود خارج الجزيرة العربيَّة[2]، فجمع هذا اللَّفظ (أوّل) دلالتين، دلالة تاريخيَّة بأنَّ هذا أول إخراجٍ لهم، والأخرى أنَّ لهذه البداية نهاية، فلفظ (أوّل) يُشير إلى آخر، فلكلِّ بداية نهاية، وما كان اليوم أوّلًا؛ فسيكون غدًا آخرًا.

الأوليَّة تُشير إلى أوليَّة تاريخيَّة في الإخراج وآخريَّة ستُكمل الأولى

وجه التّعبير عن الإخراج بـ ﴿ٱلْحَشْرِ﴾:

آثر النَّظم الكريم تسمية إجلاء اليهود وإخراجهم حشرًا في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾؛ لأنَّه أشبه بالحشر الموعود يوم القيامة؛ إذ وقع عن قهر، ولم يقع عن رغبة منهم، ثم إنَّه كان إجلاءً عامًّا، لم يدع أحدًا منهم، كما لن يدعَ حشرُ يوم القيامة أحدًا ممَّن في القبور، ثم إنَّه من جهة ثالثة كان جماعيًّا فوريًّا، وليس جماعة جماعة، وزمنًا بعد زمن[3].

جمع لفظُ الحشر الهوان والذُّلّ والقهر

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 499، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 68.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 502، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 69.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 850.

دلالة النَّفي بأداة ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في جملة: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾ حرف نفي، أوثر التَّعبير به؛ لأنَّه يدلُّ على نفي اعتقاد المؤمنين خروجَ اليهودِ من ديارهم نفيًا قاطعًا؛ لما كانوا يتمتَّعون به من كثرة عَدد وقوَّةِ عُدَدٍ.

وجه التَّعبير بفعل الظنِّ دون الحسبان:

ظنُّ المؤمنين بعدم خروج اليهود للعَدَد والعُدد

آثر النظمُ التّعبيرَ بفعل الظنِّ المنفي دون فعل الحسبان، فقال: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ﴾، ولم يقل: (ما حسبتم)؛ لأنَّ الظنَّ نوعٌ من الاعتقاد، فهو تصويرٌ لطبيعة ما ظنَّه المؤمنون في شأنِ اليهود، بخلاف الحسبان الّذي ينتج عن حسابات وتوقّعات، قد تصيب، وقد لا تصيب[1]، ما يعني: أنّ انتفاء خروج اليهود من ديارهم بلغ عند المؤمنين درجة اليقين أو قاربها، فلم يَدُرْ بخلد أحدهم - بناء على منعة اليهود وقوَّتهم - أن يروهم خارجين من ديارهم، لعظم أمرهم، ووثاقة حصونهم، وكثرة عَددهم وعُددهم، ولكثرة مؤازريهم من اليهود والمنافقين[2].

دلالة التّعبير بفعل الظّن ماضيًا:

لم يكن الظّن بعدم خروج اليهود من ديارهم احتمالًا طارئًا

التّعبير بفعل الظّن ماضيًا في قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ﴾ يشير إلى أنّ الظّن بعدم خروج اليهود من ديارهم قد استقرَّ في نفوس المسلمين قبل وقوع الحدث، أي: إنَّ هذا الظّن لم يكن مجرّد احتمال طارئ، بل كان اعتقادًا راسخًا لديهم في ذلك الوقت، وهو ما يعكس دهشة المسلمين من قبول اليهود فكرة الخروج، وسرعة حصولها.

مرجع الضّمير ودلالته في قوله: ﴿ظَنَنتُمۡ﴾:

يحسُنُ التّنبيه عند توهُّم الخطأ

الضّمير في قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ﴾ يعود إلى المسلمين، والمعنى: ما ظننتم - أيّها المسلمون - أنَّ بني النّضير سيخرجون من ديارهم

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 99.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 137.

لقوتهم ومنعتهم ومؤازرة كثيرين لهم[1]، وفي انتقال البيان إلى خطاب المسلمين تذكيرٌ بعظيم نعمة الله، وإبرازٌ لسابغ فضله عليهم في إتمام ذلك الإخراج، وتحقيق نعمة النّصر، "فإنَّ النِّعمة إذا وردت على المرء - والظّن بخلافه - تكون أعظم، فالمسلمون ما ظنّوا أنَّهم يصلون إلى مرادهم في خروج اليهود، فيتخلّصون من ضرر مكايدهم، فلمّا تيسّر لهم ذلك؛ كان وقوع هذه النّعمة أعظم"[2].

موقع ﴿أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾ الإعرابيّ ودلالته:

جملة: ﴿أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾ سدَّت مسدَّ مفعولي: ﴿ظَنَنتُمۡ﴾، وقد آثر البيانُ الكريم التّعبير بالمصدر المنسبك من ﴿أَن﴾ والمضارع؛ لما يُفيده من تسليط الظّن المنفيِّ على الفعل نفسه، أي: إنَّ ظنَّ المؤمنين في خروجِ اليهود كان أمرًا مستبعدَ الحصول مستصعب الوقوع، كما أنَّ التّعبير يومئ إلى أنَّ الظّنَّ واقعٌ على حدث الخروج المتصوّر في الأذهان، فهم يتصوّرون خروجَ اليهود من ديارِهم، ثم يستبعدونه، بخلاف ما لو قيل: (ما ظننتم خروجهم) فهو يدلُّ على أنَّ الخروجَ غير مجزوم به، وهو ما يتنافى مع قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والمعنى: ما ظننتم أن يوقعوا الخروج من شيء أورثتموه منهم؛ لِما كان لكم من الضّعف، ولهم من القوّة؛ لكثرتهم وشدة بأسهم وشكيمتهم وقرب بني قريظة منهم، فكانوا بصدد مظاهرتهم، وأهل خيبر غير بعيدين عنهم، وكلّهم أهل ملّتهم، والمنافقون من أنصارهم وأُسْرَتِهم[3].

التّعبير بالمصدر المؤوّل يفيد تصوُّر استبعاد الخروج

نوع الواو في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾:

الواو في جملة: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ لعطف ما بعدها على قوله: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ﴾، أوثر عطفهما بالواو الّتي تفيد المشاركة؛ للدّلالة على أنّ

تـوارد ظـنـون الأعداء على أمرٍ واحـدٍ يـدلُّ على قوّة المظنون فيه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 225، والشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 233.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 502.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 408.

الظنّين كانا متصاحبين أو متواردين[1]، ففي الوقت الّذي ظنّ فيه المسلمون أنّ اليهود لن يخرجوا ظنَّ اليهود أنَّ حصونهم ستمنعهم من أيِّ محاولة للإخراج، وهو ما يؤكّد أنَّ الإخراج كان نعمة عظمى ومنّة كبرى تستحقّ مزيدًا من الشّكر والتّسبيح؛ لحصوله وتمامه على الرغم من وجود كثير من الأسباب والاعتقادات الّتي كانت تحول دون وقوعه.

بلاغة الطّباق بين فعلي الظنّ:

استبعاد الخروج كان راسخًا عند الفريقين

بين قوله: ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ وقوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ ما يُعرف بطباق السّلب؛ إذ اجتمع فعلان من مصدر واحد، أوّلهما منفيٌّ والآخر مثبت، وفي الجمع بينهما إبراز لما رسخ في عقول المسلمين وفي عقول بني النّضير من استبعاد أمر الإخراج واستحالة وقوعه، وأنَّه مع ذلك الاستبعاد الّذي وصل إلى حدّ اليقين تمَّ، ووقع، بما يؤكِّد حكمة اللّه الّتي لا يحيط بها أحدٌ، وقدرته الّتي لا يعجزها شيء، وبما يفيد أنّه "إذا أراد اللّهُ نصر عبدٍ؛ استأسد أرنبُه، وإذا أراد قهر عدو؛ استنوق أسدُه"[2].

بلاغة التّوكيد في جملة: ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ﴾:

إذا استولى الغرور على النّفس؛ أوردها المهالك

قولُه: ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سدَّ مسدَّ مفعولي: (ظَنّوا) جاء مؤكَّدًا بأنَّ والجملة الاسميَّة؛ للدَّلالة على قوَّة ظنّهم وثباته، ولبيان أنّه كان ظنًّا عميقًا ثابتًا في نفوسهم راسخًا في عقولهم، بالقدر الّذي يجعلهم واثقين من أنّ حصونهم ستحول بينهم وبين أيِّ محاولة للإخراج، أيًّا كان القائمون بها.

دلالة تقديم الضّمير:

الاغترار بالحصونِ تابعٌ للاغترار بالنّفس والاعتزاز بالمكنة

آثر البيان الكريم التّعبير بضمير أهل الكتاب مُقَدَّمًا، فقال: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾، ولم يقل: (وظنّوا أنّ حصونَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 69.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 408.

ستمنعُهم)؛ ليكون الابتداء بضميرهم؛ لأنه سيعقبه إسناد مانعتهم إليه فيكون الابتداء بضميرهم مشيرًا إلى اغترارهم بأنفسهم أنّهم في عزّة ومنعة، وأن منعة حصونهم هي من شؤون عزّتهم[1]، فلا يبالون معها بأحد يتعرّض لهم، أو يطمع في منازعتهم، وهذا المعنى لا يتحقَّق؛ إذا جاء التّركيب على غير هذه الطّريقة[2].

أوجه إعراب ﴿مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ ودلالتها:

أوجـه الإعـراب تتنوَّع وتلتقي في دلالةٍ بيانيَّة متقاربة

يحتمل إعراب ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ خبرًا مقدَّمًا، و﴿حُصُونُهُم﴾ مبتدأ مؤخرًا، والجملة خبر ﴿أَنَّهُم﴾، وتقديم الخبر على المبتدأ فيها دالٌّ على فرط وثوقهم بحصانة حصونهم، ومنعها إيّاهم من أن يصل إليهم أيُّ أحدٍ، أو يخرجهم منها أيُّ جيش مهما كانت قوَّته وعدَّته[3]، ويحتمل إعراب ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ خبرًا لـ ﴿أَنَّهُم﴾، و﴿حُصُونُهُم﴾ فاعلًا له.

نكتة التّعبير باسم الفاعل دون الفعل ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾:

حـصـون بـني النّـضـير بلغت في الـرُّسـوخ والـضَّـخـامـة مبلغًا لا نظير له

التّعبير باسم الفاعل ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ دالٌّ بمعناه ومبناه على بلوغ هذه الحصون في المتانة والضخامة والرّسوخ وجميع وسائل التَّأمين والحماية والمَنْع مبلغًا لا نظير له، ولا يوجد في غيرها من الحصون، وهذا المعنى لا يتحقَّق؛ إذا عُبِّر بالفعل، فقيل: (تمنعهم)، أمّا كون الحصون فاعلًا للمنع؛ ففيه إبرازٌ لدورها في حياة اليهود، وبيان لمدى اعتمادهم عليها وارتكانهم إليها، وأنَّها عندهم ليست مجرد هياكل أو مبانٍ لا دور لها، وإنَّما هي قوّة دفاعيّة فعّالة تمنع دخول الأعداء إلى ديار اليهود، وتزوّدهم عن بيوتهم، وتحميهم من أيِّ معتدٍ يريد أن يُغير عليهم.

بلاغة الاستعارة المكنيّة في لفظ ﴿حُصُونُهُم﴾:

على إعراب ﴿حُصُونُهُم﴾ فاعلًا لقوله: ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ يكون التّركيب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 69.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 499، وصدّيق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 39.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 502، وصدّيق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 39.

الاستعارة تصويرٌ لما يدور في مخيّلة بني النّضير وبيانٌ لقوّة ثقتهم بأنفسهم

من باب الاستعارة المكنيّة الّتي شُبِّهت فيها الحصونُ بالجنود الأشدّاء الأقوياء، الّذين يرقبون المعتدين، ويصدونهم، ويمنعونهم من إيذاء مَنْ يلوذون بهم، ويستترون فيهم، ثم حُذِف المشبَّه به، ورُمِزَ إليه بشيء من لوازمه، وهو المنع على سبيل الاستعارة المكنيَّة، الّتي تخلع على هذه الحصون لونًا من ألوان الحراسةِ العاقلةِ الواعيةِ الّتي ترقُبُ المخاطرَ، وتمنعُها.

وجه التّعبير بمفردة ﴿حُصُونُهُم﴾:

الحصونُ تغني عن الدّور وتحلُّ محلّها وقتَ الغزو

آثر النّظم الكريم التّعبير بمفردة ﴿حُصُونُهُم﴾ دون (ديارهم)؛ لأنَّ اليهودَ كانوا يتركون الدّور، ويأوون إلى الحصون عندما يحيط بهم الخطرُ، أو يأتيهم الغزاةُ[1]، ما يعني: أنَّ الحصون كانت تقوم مقام الدّور في تلك الحالة، وهو ما يستدعي التّعبير بها؛ لكونها أغنتْهم عن الدّيار، ونزلت منهم منزلتَها، وصار اعتمادُهم عليها والتجاؤُهم إليها.

دلالة إضافة الحصون إلى الضّمير:

حصونُ بني النّضير معروفةٌ بقوّة بنائها ومتانة تشييدها

إضافة الحصون إلى ضمير اليهود في قوله تعالى: ﴿حُصُونُهُم﴾ بمعنى اللّام، أي: الحصون الخاصَّة بهم، المعروفة في قوّة التّشييد، وبراعة البناء، ففيها إيماءٌ لإبراز وثاقة العلاقة، وبيان قوة الارتباط الحاصل بينهم وبين حصونهم في جميع الأوقات بصفة عامة، وفي أوقات الغزو بصفة خاصّة.

نوع ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

حرف ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مع المجرور جارٌّ ومجرور متعلِّق بـ: ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾، و﴿مِّنَ﴾ بيانيَّة توضِّح مَن تمنعهم الحصونُ مِن خطره أو ممّا يريده بهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 69.

غرض ذكر اسم الجلالة وتعيين المراد منه:

توبيخ يهود بني النّضير على سوء اعتقادهم وقبح مسلكهم

آثر النّظم الكريم ذكر الاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقد ذكر المفسِّرون أنَّ المعنى مِنْ رسول الله ﷺ وجيشه الرّاغب في معاقبتهم على الخيانة والغدر[1]، ونكتة ذكرِ اسم الجلالةِ هو بيان المعتقد الفاسد الّذي يُسيطر على اليهود، فهم يظنّون أنَّ هذه الحصون تمنعهم في الحقيقة من الله تعالى، فكان ذكرُ الاسم الجليل لا لتقدير المحذوف فحسب، بل للتّصريح بالمعتقد الفاسد، فهم يعلمون أنّ رسول الله ﷺ هو رسولٌ حقًّا، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة: 146]، فمن عرف المرسِل، وعصى رسولَه؛ فقد عصاه على التّحقيق، فنكتة ذكر الاسم الجليل توبيخ يهود بني النّضير، وتقريعهم على اعتقادهم الباطل.

نوع الفاء ودلالتها:

عقاب الله تعالى ينزل بالظّانين ظنَّ السّوءِ على وجهٍ بالغ السّرعة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لتفريع ما بعدها على جملة: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم﴾، وهي تفيد بجانب التّفريع معنى التّعقيب والإسراع، ما يعني: أنَّ أمْرَ الله وقضاءَه فيهم نزل بهم على وجه بالغٍ في الإسراع، بحيث لم ينتظروا وقتًا طويلًا حتى يخرجوا من الدّيار الّتي ظنّوا أنّه لا يستطيع أحدٌ إخراجَهم منها، وحتّى يتركوا الحصونَ الّتي اعتقدوا أنّها ستمنعُ أيَّ أحدٍ يحاول إجلاءَهم عنها.

دلالة التّعبير بفعل الإتيان دون المجيء:

التّعبير بفعل الإتيان الموضوع للمجيء بسهولة[2] دالٌّ على أنَّ إخراجَ اليهود بلغ الغاية في السُّهولة واليسر على الله، الّذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 500، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 502.
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (أتى).

بلاغة إظهار اسم الجلالة في موضع إضماره:

تبكيتُ الغافلين على سوءِ الاعتقاد بالله ربِّ العالمين

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (فأتاهم من حيث لم يحتسبوا) بإسناد فعل الإتيان إلى الضّمير المستتر العائد على اسم الجلالة، لكنَّ النّظمَ عدل عن الإضمار إلى الإظهار؛ لأنَّ ما أخرجهم اللّهُ به من قَذْف الرّعب في قلوبهم لا يفعلُه غيرُه، ولا يستطيعُه أحدٌ سواه، بَلَهَ أن يخطر على بال أحدٍ من البشر أصلًا، كما أنَّ الإظهارَ فيه تأكيدٌ لما سبق الامتنانُ به من قصر إخراج اليهود على الله تعالى، والمعنى: جاءهم الملكُ الأعظمُ بالّذي لا يحتملون مجيئَه، بما صوَّر لهم من حقارة أنفسهم الّتي اضطرّتهم إلى الجلاء[1]، ولما ظنّوا أنَّهم مانعتهم حصونهم من الله، كان إظهارُ الاسم الجليل الّذي ظنَّ فيه الباطل هو الأنسب لتبكيتهم بما ظنّوا، كأنَّه قيل: الّذي ظننتم أنّكم قادرون على الاحتماء منه هو الله الّذي أتاكم من حيث لم تحتسبوا، فهو ليس مجرّد سردٍ لحدث، بل فيه من معاني التّبكيت والتّوبيخ والتّقريع على الاعتقاد الباطل، والصّنيع الهابط.

نكتة ذكرِ ضمير اليهود مقدَّمًا دون ذكرِ حصونهم:

تدميرُ الحصونِ تابعٌ للمقصود الأبلغ وهو عقاب النّفوس المريضة

قُدِّم ذكر الضّمير المنصوب في قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، وهو عائدٌ على اليهود، دون أن يقول: (فأتى الله حصونَهم)، وهو المتحقِّق في الواقع؛ لبيانِ أنّهم المقصودون بالإتيان، وأنَّ الحصون ما هي إلّا مظاهر زائفة، والعبرة باعتقاد نفعهم المانع من قدرة الله تعالى، فهو المستحقّ للتّدمير، وهو المقصود بالتّشتيت، والمعنى: فأتى اليهودَ المُتَحصِّنين عقابُ الله من حيث لم يحتسبوا؛ فأوثر تقديمُ الضّمير؛ للاهتمام ولفت الأنظار إلى مصير هؤلاء الّذين ظنوا أنَّ حصونهم ستمنعهم من أمر الله، واعتقدوا أنه لن يستطيع أحدٌ إخراجَهم منها بأيِّ شكل من الأشكال، ولا بأيِّ قوة من القوى.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 409.

نوع ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ﴾ بيانيّة توضّح المكان الّذي أخرج اليهود من ديارهم، وجعلهم يخرّبون بيوتهم بأيديهم، والّذي لم يحسبوا حسابه، ولم يعدّوا له العدّة، ولم يُدخلوا إليه الجنود والتّجهيزات.

وجه التّعبير بالظّرف ﴿حَيۡثُ﴾:

آثر النّظم الكريم استعمال الظّرف ﴿حَيۡثُ﴾؛ فقال: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾، ولم يقل: (من مكان) للتّفريق بين الظرفيّة الحقيقيَّة الّتي يُستعمَل لها لفظ (مكان)، والظرفيّة المجازيّة الّتي استعمل لها النّظمُ هنا لفظ ﴿حَيۡثُ﴾ الدّال على أنَّ الوسائل والطّرائق الّتي يَهزِمُ الله تعالى بها أعداءه يمكن أن تكون طرائقَ غيرَ تقليديَّة، ووسائلَ لم تخطرْ على البال، ولا تأتي في الحسبان، ولو قيل: (مكان)؛ لدلَّ ذلك على أنَّ الوسيلة الّتي أُخِذوا بها كانت معهودة متوقَّعة، وهو ما ينافي الواقع والحقيقة.

(حيث) تستعمل في الظرفيّة المجازيّة

دلالة التّعبير بفعل الاحتساب منفيًّا:

آثر النّظم الكريم استعمال فعل الاحتساب المنفيّ، في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ دون: (لم يظنوا)؛ للدّلالة على أنَّ الإتيانَ كان من جهة غير واردة في الحسبان، ولم تخطر على البال، ولم يجْر لها ذكرٌ في الكلام، ولم توضع كأحد الاحتمالات، وهو ما يفيده نفي الاحتساب، الدالِّ على المبالغة في الحسبان، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ القومَ قد حسبوا الأمر من جميعِ جوانبه وجهاته، وبالغوا في ذلك، لكنَّهم لم يحسبوا الجهة الّتي أتاهم الله منها، ولو قيل: (من حيث لم يظنّوا)؛ لكان معناه: أنَّه خطر على بالهم، ولكنّهم استبعدوا الإتيان منه، ولو أثْبَتَ لهم الغفلة، فقال: (فأتاهم من حيث غفلوا)؛ لكان المعنى: أنَّه كان في الحسبان، ولكنّهم غفلوا عنه، وهذا غير صحيح أيضًا، والصّواب: "أنَّه أتاهم من مكان لم يظنّوه؛ لأنَّهم

حسبان يهود بني النّضير قاصرٌ عن الإحاطة دالٌّ على الخذلان

قَصَروا استعدادَهم على التحصُّن والمنعة، ولم يعلموا أنّ قوَّةَ الله فوق قوّتهم"[1].

بلاغة الاستعارة التَّمثيليَّة:

تـمـثـيـلُ حـال اليهود بحال مَنْ جاءه غريمُه مِنْ جهةٍ لم يُعَيِّنْ فيها حراسةً

في قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ استعارة تمثيليّة، مُثِّلَ فيها شأنُ اللهِ حين يسَّر أسبابَ استئصالِهم بعد أن صمَّموا على الدّفاع، وكانوا أهْلَ عِدَّةٍ وعُدّة، ولم يَطُلْ حصارُهم بحال من أخذ حذره من عدوه، وأحكم حراسته من جهاته، فأتاه عدوُّه من جهة لم يكن قد أقام حراسة فيها، وهذا يشبه التّمثيل الّذي في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النّور: 39][2].

نوع العطف ودلالته:

قـذفُ الرُّعبِ في قـلـوب الـيـهـود سـلاحٌ ربّـانـيٌّ يـهـزم الـلـه به أعداءَ الإسلام

الواو في قوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ﴾؛ لِعَطف ما بعدها على جملة: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، عطفَ الخاصِّ على العامّ؛ لأنَّ قذفَ الرّعب في قلوبهم من أحوال إتيان الله إيّاهم من حيث لم يحتسبوا، وخُصِّصَ بالذّكر للتّعجيب من صنع الله بهم، وللاهتمام[3]، والتّأكيد على أنّ ذلك الإخراج كان من الله تعالى، ولم يكن من أحدٍ غيره؛ لأنَّ قذفَ الرّعبِ في القلوبِ لا يكون إلّا من الله تعالى.

دلالة التّعبير بفعل القذف:

قـذفُ الـرُّعـب أحْدَث في قلوب اليهود صدمةً عنيفةً دفعتهم عـلى الـفـور إلى طلب الجلاء

آثر النّظم الكريم استعمال فعل القذف الموضوع للرّمي بقوّة في جملة: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾؛ للدّلالة على الحصول العاجل، أيْ: حصول الرّعب في قلوب اليهود دفعةً دون سابق إنذار ولا وجود سبب ظاهر، والمعنى: جعل اللّهُ الرّعبَ في قلوبهم، فأسرعوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 70.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 70.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 70.

بالاستسلام[1]، بخلاف فعل الإلقاء المُعَبَّر به في قوله تعالى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 151]، والدّال على أنَّ الرُّعب سيوضع في قلوب الكفّار وضعًا تدريجيًّا، وربّما يأخذ أثرُه بعض الوقت حتّى يظهر، ما يعني: أنَّ خروجهم قد يتأخّر، وهو ما يخالف الواقع الّذي حصل، والّذي يناسبه التّعبير بفعل القذف، الّذي أحدث في قلوب اليهود أثرًا قويًّا وصدمة عنيفة، دفعتهم على الفور إلى طلب المصالحة مقابل الجلاء والخروج.

غرض التّعبير بفعل القذف ماضيًا مسندًا إلى ضمير اسم الجلالة:

قذفُ الرُّعبِ في القلوبِ تحقّق في الواقع وثبت في أثره

جيء بفعل القذف ماضيًا؛ للدّلالة على تحقُّق حصوله، وتأكّد وقوعه، ومشاهدة الجميع ما ترتّب عليه من جلاء اليهود، ومشاركة المسلمين لهم في تخريب بيوتهم، وأُسنِد إلى ضمير الجلالة دون إعادة الاسم الأعظم جريًا على الظّاهر في التّعبير عن الاسم الّذي سبق ذكرُه بالضّمير؛ لما يفيده من تعيين المسند إليه تعيينًا يحول دون صرف الحديث عنه إلى غيره، والمعنى: وقذف اللّهُ في قلوبهم الرّعب.

بلاغة حرف الظرفيّة:

التّعبير بحرف الظرفيّة في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ دالٌّ على أنّ الرّعبَ الّذي قذفه اللّهُ في قلوب اليهود قد سكنها، وملأها، وعَبَرَ منها إلى جميع قواهم، فاجْتَثَّها من أصلها[2].

براعة ذكر القلوب:

القلوب بيت الظّنون وفيها مهبط الرّعب

آثر البيانُ القرآنيّ التّعبيرَ بالقلوب دون الصّدور، فقال: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾، ولم يقل: (وقذف في صدورهم)؛ لما للقلوب من تأثير عظيم على كل أعضاء البدن؛ إذ هي المتحكّمة في أفعال البشر، والباعثة لمشاعرهم والمحرّكة لأحاسيسهم، ولمّا كانت

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 70.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 410.

القلوبُ بيتَ الاعتقاد والظّنون؛ ناسب أن يكون الرُّعبُ مقذوفًا فيها، متمكِّنًا في أرجائها؛ ليكون الجزاءُ على الظّنون الباطلة في مكمنها وبيتها، وهي القلوب.

دلالة إضافة القلوب إلى الضّمير:

مَنْ يحتمي بغير الله لا يجني إلّا الفزعَ والرّعبَ

الضّمير المجرور في لفظ ﴿قُلُوبِهِمُ﴾ يعود إلى بني النّضير الّذين تحصَّنوا في حصونهم، وفي إضافة القلوب إليه تأكيد لما أصابهم من الخوف والرّعب على وجه من المبالغة والإسراع، بعد أن كانوا في غاية من الثّقة والاطمئنان إلى الامتناع؛ بسبب قوّة الحصون وضخامتها، ولا يخفي ما فيه من تلويح إلى أنَّ مَنْ يحتمي بغير الله، ويلجأ إلى سواه لا يجني إلّا الفزع والرّعب.

بلاغة استعمال مفردة ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾:

الأنسب بالسّياق استعمال مفردة الرُّعب لما فيها من بيان قوّة الأثر

عبَّر النّظمُ بـ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾ الّذي يعني: شدّة الخوف والفزع، وأصلُه: الامتلاء، تقول: رعبت الحوض؛ إذا ملأته[1]؛ للدّلالة على أنّ الرعبَ الّذي قذفه اللهُ في قلوب اليهود ملأها بالجزع والفزع، فاستسلموا؛ بسبب ذلك لما حَكَم به الرّسولُ عليهم[2]، ولو عبَّر بالخوف الدّال على مجرَّد انزعاج القلب بتوقّع مكروه عاجل[3]؛ لَما ناسب الواقع الّذي صاروا إليه من طلبِ الجلاء والاستسلام؛ إذ وجود الخوفِ وحدَه لا يجعل صاحبَه يستسلم.

بلاغة الاستعارة في مفردة ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾:

تصوير قوّة الرّعب في القلوبِ وشدّتها في النّفوس

في مفردة الرّعب في قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ استعارة مكنيّة، شُبِّه فيه الرّعبُ الّذي هو أمر معنويّ، بالشّيء الحسيّ الّذي تقبض عليه الأيدي بإحكام، وتلقيه إلقاءً شديدًا

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (رعب).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 285.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 242.

في قلوب اليهود، فيصدعها، ويملؤها خوفًا وفزعًا يتسبّب عنه أن يطلبوا الصّلح والأمان مقابل الخروج من الدّيار، بشرط ألّا يأخذوا معهم إلّا ما حملت دوابُّهم، فكانوا يأخذون ما استطاعوا، ويجتهدون في إتلاف الباقي حتّى لا ينتفع به المسلمون.

دلالة جملة الحال:

جاءت جملة ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾؛ لأنَّها في محلِّ نصب حال من الضّمير المجرور في ﴿قُلُوبِهِمُ﴾، جيء بها لتوضيح الفعلِ الّذي دفعهم إليه الرّعبُ الّذي قذفه اللّهُ في قلوبهم.

بلاغة استعمال مفردة ﴿يُخْرِبُونَ﴾:

تخريب البيوت دليل اليقين بالزّوال الماحق

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿يُخْرِبُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ هؤلاء اليهود بلغ من سوء نيَّتهم، واضطراب أمرهم، أنَّهم عندما أجمعوا أمرهم على الرّحيل عن المدينة؛ أخذوا يخرِّبون بيوتهم عن طريق إسقاط بنائها، وهدم السّليم منها، وإزالة ما اشتملت عليه من أبواب وغيرها، حتّى لا ينتفع المسلمون من بعدهم بها[1]، وهو ما يدلُّ على قلوبِهم الخبيثة، الّتي استسهلت الخرابَ بعد العمار، فأرادوا لها الخراب لعلمهم بعدمِ العودة لها، واستيقانهم بالزّوال الماحق، ويدلُّ كذلك على الشّخصية التّخريبيّة الّتي تُخالف وظيفة الإنسان في الأرض، وهو العمارة، وهو ما يدلُّ على أنَّ اليهود لم يتركوا شيئًا خلفهم إلّا كان خرابًا، فحسنت المقابلة بين التّخريب المذكور، والعمارة الملحوظة في معناها.

دلالة التّعبير بصيغة المضارع ﴿يُخْرِبُونَ﴾:

اليهود لا يتركون بعدهم عمارًا ولو كانت ديارهم

جيء بفعل ﴿يُخْرِبُونَ﴾ مضارعًا؛ لما يمتاز به من استحضار الصّورة الماضية، كأنَّها شاهدةٌ ماثلةٌ أمامَ الأعين، يظهر فيها اليهود وهم يُخربون بيوتَهم، فتعمل الصورةُ المستحضرةُ عملَها

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 285.

في تذكير المسلمين بفضل الله في هذا النصر العظيم، وتدفعهم إلى اختصاصه سبحانه بمزيد من التَّسبيح والشُّكر والتَّمجيد، ولم يقل: (خرّبوا بيوتهم)؛ لأنَّه لم يُرد مجرَّد الإخبار عن التّخريب، بل تصوير صورتهم، وتبشيع مسيرتهم، فهُم لا يتركون عمارًا بعدهم، ولو كانت ديارهم.

توجيه القراءات المتواترة:

القراءتان تبرزان حال اليهود وهم بين النّدم والألم

اختلف القرّاء في قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ﴾، فقرأ أبو عمرو بالتّشديد: ﴿يُخَرِّبُونَ﴾، وقرأ الباقون بالتّخفيف: ﴿يُخْرِبُونَ﴾[1]، وقراءة التّشديد تبرز ما سيطر على اليهود من حنق وغيظ ومبالغة في إفساد بيوتهم[2]، حتّى لا يسكنها المسلمون من بعدهم، أو ينتفعوا بشيء منها، وقراءة التّخفيف تبرز حالة الألم والحزن الّتي كانت تغشاهم أثناء قيامِهم بالإخراب، "وقيل: في الفرق بينهما وجهان: **أحدهما:** مَن قرأ بالتَّشديد؛ أراد إخرابها بأفعالهم، ومن قرأ بالتّخفيف؛ أراد إخرابها بفعل غيرهم، **الثّاني**: أنّ من قرأ بالتّشديد؛ أراد إخرابها بهدمهم لها، وبالتّخفيف أراد فراغها بخروجهم عنها"[3].

سرُّ التعبير بـ ﴿بُيُوتَهُم﴾:

تخريبُ اليهودِ لكلِّ البيوت بدون استثناءٍ لها

آثر النّظم الكريم استعمال لفظ: ﴿بُيُوتَهُم﴾ بعد أن ذكر فيما سبق لفظَ ﴿دِيَرِهِمْ﴾، والمرادُ بالبيوت بيوتهم وحصونهم؛ فلمّا كانت سكناهم في الحصونِ ومبيتهم فيها؛ أطلق عليها اسمَ البيوت؛ لتشمل البيوت المعهودة والحصون، ولأنَّ "هذه الحصون الّتي كانت بمكان الإعزاز والإعجاب من نفوسهم قد هانت عليهم، وخفَّت موازينُها في أعينهم بعد أن رأوا - بما امتلأت به قلوبهم من رعب - أنّها لا ترُدُّ

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 386.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 410.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 500.

عنهم عدوًّا، ولا تدفع مُغيرًا، فأخذوا يخرّبونها بأيديهم، ويفتحون معاقلها للمسلمين، كما تركوا للمسلمين أن يدخلوها عليهم، وأن يفتحوا مغالقها، ويطلعوا على مسالكها... وهذا هو معنى خرابها، الّذي يبدو في تعطيلها، وتعطيل وظيفتها الّتي أُعدَّتْ لها"[1].

البيوت هي المساكن الخاصّة، والدّيار هي المساكن وعموم الأحياء

ولبيان أنَّ التّخريب نال بيوتهم الخاصّة، فالفرق بين البيوت والدّيار، هو أنَّ البيت المسكن الخاص لكلِّ عائلة، أمّا الدّيار؛ فهي تشمل البيوت والأحياء والعرصات، فذكر البيوت؛ ليُبيِّن أنّ كلًّا منهم خرَّب بيته الخاص به، وأنّ التّخريب سلوك عامٌّ فيهم، فوقع التّخريب على البيوت بيتًا بيتًا، ومن صنع ذلك في بيته؛ فإنّه صانعه في حيِّه، ولو قال: (يخرّبون ديارهم)؛ لفُهم التَّخريب بالجملةِ، أي: إنَّ التّخريب وقع على جملة الدّيار، وعليه فتسلم بعض البيوت، لكن لمّا قال: ﴿بُيُوتَهُم﴾؛ علمنا أنَّ التّخريبَ نال البيوت كلّها بدون استثناء.

دلالة إضافة البيوت إلى الضمير:

أُضيف لفظ البيوت إلى الضّمير؛ لتصوير الفجاءة والدّهشة من صنيعهم، فإنَّ الإنسان يعزُّ عليه تدمير بيته، لكنّهم سارعوا إلى خرابها، فالإضافة بمعنى اللّام الّتي هي للاختصاص.

نوع الباء ودلالتها:

قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ جارّ ومجرور متعلِّق بـ ﴿يُخْرِبُونَ﴾، والباء فيه للاستعانة والآلة، ما يعني: أنّ خراب بيوتهم كان بالاستعانةِ بأيديهم وأيدي المسلمين.

بلاغة المجاز في استعمال لفظ الأيدي:

الأيدي التي بَنَتْ هي الّتي هدمت، فعادت من حيث ابتدأت

إيثار استعمال لفظ الأيدي في قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ مجاز مرسل علاقتُه الجزئيَّة؛ إذ الحقيقة الّتي يستند إليها أنّ الأيدي والأرجل والأعين والعقل كلها أعضاء شاركت في

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 851.

تخريب البيوت وأدَّت دورًا مهمًا في ذلك، لكن البيان اختصَّ الأيدي بالفعل لِما لها من أثر كبير ودور رئيس في عملية التّخريب والهدم والإفساد والتّعطيل، وغير ذلك ممّا يحول بين المسلمين وبين الانتفاع بالبيوت، ولتوريثهم النّدم؛ إذ كانت اليد البانية هي الهادمة، والرّافعة هي الخافضة، فجمعت بين متناقضين مختلفين.

بلاغة العطف بالواو:

تسبَّب اليهودُ في أن يشاركهم المسلمون في هدم بيوتهم وتخريبها

جاء قولُه تعالى: ﴿وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفًا على ما قبله بالواو الّتي تُفيد المشاركة في الحكم؛ للدّلالة على أنَّ اليهود تسبَّبوا في أن يشاركهم المؤمنون في تخريب بيوتهم، وجعلها غيرَ صالحة لأحدٍ بعدهم؛ إذ "كان المؤمنون يخرِّبونها إزالةً لمُتَحَصِّن اليهود ومتمنّعِهم، وتوسيعًا لمجال القتال ونكاية لهم، وأُسنِد هذا إلى اليهود؛ لأنَّهم السّببُ فيه، فكأنّهم كلّفوا المسلمين إيّاه، وأمروهم به"[1].

دلالة المجاز الإسناديّ:

حُمْقُ اليهود ونَزَقهم أعانَ المؤمنين على تخريب بيوتهم

إسنادُ فعل التّخريب إلى أيدي اليهود إسنادٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّهم فعلوا ذلك، وحرصوا على القيام به في الواقع، و"أمّا تخريبُهم بيوتَهم بأيدي المؤمنين؛ فهو مجاز عقليٌّ في إسناد التّخريب الّذي خربه المؤمنون إلى بني النّضير، باعتبار أنَّهم سبَّبوا تخريب المؤمنين لما تركه بنو النّضير"[2]، وفيه ما يدلُّ على حمق اليهود ونزقهم.

بلاغة الالتفات في الآية:

الإيماء إلى أنَّ تخريب بيوت اليهود سيكون على أيدي المؤمنين مستمرًّا إلى يوم الدّين

كان مقتضى الظّاهر أن يُقالَ: (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيديكم)؛ جريًا على ما سبق بيانُه بأسلوب الخطاب في قوله: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾، لكنَّ النّظمَ الكريمَ التفت عن التّعبير بضمير الخطاب إلى التّعبير بأسلوب الغيبة؛ لما يفيده الالتفاتُ من تنشيط

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 226، بتصرّف.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 72.

المتلقّي وتطريته، وإثارته إلى إدراك مقاصد الكلام وفهم مراميه، ولما يفيده الذكرُ بوصف الإيمان من إشعارٍ بأنَّ إخراج بني النّضير من ديارهم؛ كان مكافأةً من الله تعالى للمسلمين على إيمان عميق تغلغل في نفوسهم، فحملهم إلى الإسراع في الاستجابة لنداء الرّسول بتأديب الغادرين وإجلاء المتآمرين، فكفاهم اللّهُ شرَّ القتالِ، وحقَّق لهم النّصرَ من غير خيلٍ ولا ركابٍ، ولتكون الغيبةُ ناطقةً بوعدٍ إلهيٍّ مستمرٍّ إلى يوم الدّين بأنَّ تخريب بيوت اليهود سيكون بأيدي المؤمنين، ولو جاء على الخطاب؛ لكان نصًّا في خصوص المخاطَبين، لكنّه جاء عامًّا؛ ليشمل كلَّ مؤمنٍ، وفي كلِّ عصر وآنٍ.

نوع الفاء ودلالتها:

إتيان الغادرين من حيث لم يحتسبوا ليس مقصورًا على اليهود وحدهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾؛ لتفريع الأمر بالاعتبار على ما مضى من إخراج اليهود وقيامهم بتخريب بيوتهم، ما يعني: أنَّ ما حدث لهم يمكن أن يحدث لكل مَنْ كان على شاكلتهم في الكفر بالله والغدر برسوله؛ لأنَّ إتيان الغادرين من حيث لم يحتسبوا ليس خاصًّا باليهود وحدهم، وليس حِكْرًا عليهم دون غيرهم، والمعنى: فتأمَّلوا فيما نزل بهؤلاء، والسّبب الّذي استحقّوا به ذلك، واحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم، فتُعاقَبوا بمثل عقوبتهم[1].

بلاغة استعمال مفردة الاعتبار دون الاتِّعاظ:

على ذوي البصائر أن ينظروا إلى إجلاء بني النّضير نظرة فكر وتأمُّل واستخلاص

عبَّر البيانُ الكريم بقوله: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾ المشتقّ من العبور، الّذي يعني: التوصُّل من الحالة المشاهدة إلى ما ليس بمشاهَد[2]؛ للدَّلالة على: أنّ المطلوب من المُخاطبين ذوي البصر والبصيرة أن ينظروا إلى أحداث بني النّضير نظرة تأمّلٍ وفكرٍ لا تقف عند حدِّ الاتّعاظ، وإنَّما تتجاوزه إلى استخلاص الدّروس واستنباط القواعد والأسس

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 456.
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (عبر).

الّتي وضعها الله للتّعامل مع الكافرين بدينه، المتآمرين على رسوله، وهذا المعنى لا ينهض به فعلٌ مثل: اتّعظوا؛ لدلالته على مجرَّد الزَّجر المقرون بالتّخويف[1].

غرض الأمر في قوله: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾:

إرشـادُ المتلقّين وتحذيرُهم من الـوقـوعِ فيما وقع فيه اليهودُ

غرضُ الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾: توجيه النَّصيحة إلى المخاطَبين بصفة عامَّة، وإلى ذوي البصيرة منهم بصفة خاصّة، وإرشادُهم إلى أخذ ما حدث لليهود من إخراج وتخريب بعين الفكر والاعتبار، والحذر من الوقوع فيما كان سببًا في عقابهم بهذا الأمر الّذي لم يكن في حسبانِهم، ولا في حسبانِ أحدٍ غيرِهم، والمعنى: فاتَّعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجهٍ لا تكاد تهتدي إليه الأفكار، واتَّقوا مباشرةَ ما أدّاهم إليه من الكفر والمعاصي، واعتبروا من حالهم في غدرهم واعتمادهم على غير الله تعالى - الصّائرة سببًا لتخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم ومفارقة أوطانهم مكرهين - إلى حال أنفسكم، فلا تعوِّلوا على تعاضد الأسباب، وتعتمدوا على غيره ﷻ، بل توكَّلوا عليه سبحانه[2].

غرض النِّداء ودلالته:

في إخـراج بني النّضير دلالاتٌ لا يراها إلّا أصحابُ البصائرِ النافذةِ

النّداء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ غرضُه تنبيهُ المخاطَبين ولفْتُ أنظارهم إلى تأمُّل هذا الحدث، وفَهْمُ ما فيه من دلالات على قدرة الله، وعلى تدبيره المحكم الّذي لا يُغالب، وأنَّ هذا لا يراه إلّا أصحابُ الأبصار النّافذة إلى حقائق الأمور، وإلى مواقعِ العبرة والعظة منها[3].

تعيين مرجع النّداء:

الخطاب في: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ موجَّه إلى غير معيَّن، ونداء

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (وعظ).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 235.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 851.

(أولي الأبصارِ) بهذه الصِّلة يشير إلى أنَّ العبرة بحال بني النّضير واضحةٌ مكشوفةٌ لكلِّ ذي بصر ممَّن شاهد ذلك، ولكل ذي بَصَرٍ يرى مواقع ديارهم بعدهم، فتكون له عبرة في قدرة الله على إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال، وفي انتصار الحقِّ على الباطل، وانتصار أهل اليقين على الكفّار المذبذبين[1].

العبرة بحال بني النَّضير واضحةٌ مكشوفةٌ لكلِّ ذي بَصَرٍ وبصيرة

سِرُّ إضافة المنادى إلى ﴿ٱلْأَبْصَٰرِ﴾:

إضافة المنادى إلى ﴿ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ دون العقول أو غيرها من حواسِّ الإنسان فيه دعوةٌ إلى اليقظة والانتباه والنّظر إلى كلِّ ما يُشاهَد نظرة تأمُّل واعتبار، وألّا تكون رؤيةُ ديار بني النّضير وآثارهم بصفة خاصّة، ورؤية آثار غيرهم بصفة عامَّة رؤيةً سطحيةً لا تفكُّر فيها ولا قياس للأحوال عليها، وأوثرت ﴿ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ دون غيرها بالتَّعبير؛ لأنَّ الرُّؤية والمشاهدة هي الخطوة الأولى للإدراك والفهم، فَما يُرى بالعين ينتقل إلى العقل والقلب للتأمّل والتدبُّر على وجهٍ بالغٍ في التّذكير؛ لأنَّ الموعظة المدعومة بالصّورة أقوى أثرًا، وأنجع في الاعتبار من الموعظة الخالية منها، لكون الصّورة أبقى في الذّاكرة من مجرّد الإخبار الّذي لا تصحبُه مَشاهِدُ مرئيّةٌ، فجمع لفظ ﴿ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ بين البصر والبصيرة.

الأبصار لفظٌ جامع بين البصر والبصيرة

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدّار والبيت:

(الدّارَ): تُطلق على المنزل اعتبارًا بدورانها الّذي لها بالحائط، وقيل: دارة، وجمعها ديار، وتسمّى البلدةُ دارًا، والقبيلةُ دارًا، والصّقعُ دارًا، والدّنيا دارًا، والدّار الدُّنيا، والدّار الآخرة، إشارة إلى المقرّين في النّشأة الأولى، والنّشأة الأخرى[2]، ما يعني أنَّها

التّعبيرُ بالدّيار دالٌّ على شدّة التمسّك والبيت مرتبط بالبيت

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 72.
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (دار).

تُطلَق على كلّ ما يحمل معنى الاستقرار وعدم الارتحال، أمّا البيت؛ فيطلق على: مأوى الإنسان باللَّيل؛ لأنَّه يقال: باتَ: أقام باللّيل، ويقال للمسكن: بيت من غير اعتبار اللّيل فيه، وجمعه أبْيات وبُيوت، لكنّ البيوت بالمسكن أخصّ[1]، ولما كان البيان متحدِّثًا عمّا في إخراج بني النّضير من نعمة كبرى ومنّة عظمى على المسلمين؛ ناسب التّعبير بلفظ ﴿دِيَرِهِمْ﴾ الدّال على رسوخ قدمهم فيها، وشدّة تمسّكهم بها، وعظمة ما تمثّله لهم من قيمة وتاريخ، وهذا لا يحقّقه التّعبير بـ(البيوت) الدّال على كونها مجرّد أماكن للمبيت، وأنَّ إخراجَهم منها لم يكن فيه شيءٌ من الصّعوبة.

القذف والإلقاء:

القذف يعني: الرّمي بعيدًا[2]، ما يعني أنّ عنصر القوّة والشدّة متحقّق فيه، أمّا الإلقاء؛ فهو طرح الشّيء حيث تلقاه[3]، ما يعني: أنّ عنصر الشّدة ليس شرطًا فيه، ولما كان الحديث عن الرّعب الّذي ترك في قلوب اليهود صدمة عنيفة دفعتهم إلى طلب التّصالح مقابل الجلاء عن البيوت والدّيار؛ ناسب التّعبير بمفردة (القذف)؛ لدلالته على الرّمي بالقوّة الّتي تتناسب مع الرّعب، بخلاف مفردة (الإلقاء) الخالية من معنى القوّة، الّتي يحتاج إليها الرّعبُ حتّى يحدث الأثر المأمول.

القذف إلقاءٌ بقوّة، والإلقاء أعمُّ من ذلك

الرُّعب والخوف:

الرُّعبُ يُطلَق على: الانقطاع من امتلاء الخوف، يقال: رعبته فرعب رعبًا، فهو رعب[4]، أمّا الخوف؛ فهو توقُّع مكروه عن أمارة

الرُّعب خوفٌ يدفع إلى الاستسلام، والخوف فزعٌ يُلحق بصاحبه الاضطراب

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (بيت).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (قذف).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 441.
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (رعب).

مظنونة أو معلومة[1]، ولمّا كان الحديث عمّا أحدث هزَّة عنيفة في قلوب اليهود؛ ناسب التّعبير بمفردة ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾؛ لدلالتها على امتلاء القلوب خوفًا وفزعًا دفعها إلى الجلاء، بخلاف مفردة (الخوف) الدّال على: مجرّد انزعاج القلب بتوقّع مكروه قد يتحقّق، وقد لا يتحقَّق، ومن ثمَّ فمن الممكن أن يخافَ المرءُ، لكنّه لا يستسلم، كما سبق بيانه.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 242، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 576.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الستون،
سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 60 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-66-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 60 : المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-66-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5294607 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"